من الأدب الألماني

توبياس مندرنيكل • لتوماس مان

ترجمة : إيهاب الأزهري

شارع « جراى » واحد من تلك الطرقات التى تنحدر انحدارا كبيرا من منطقة الميناء الى وسط المدينة ، فى منتصف ذلك الشارع والى اليمين يقع المنزل رقم ٤٧ • • وهو منزل ضيق قذر البناء ، لايختلف عما يجاوره من المنازل فى شىء •

فى الطابق الارضى من المنزل يقع حانوت لبيع الشمع •• منه تستطيع أيضا شراء (الشباشب) وزيت الخروع فاذا ماعبرت المدخل خلال فناء المنزل المليء بالقطط صاعدا سلما قذرا تزكم رائحته الانوف فانك تصل الى الطوابق العليا •

فى الطابق الاول الى اليسار يسكن صانع خزانات خشبية ، والى اليمين تقطن قابلة •

فى الطابق الثانى الى اليسار يسكن اسكافى والى يمينه تسكن سيدة ما أن تسمع وقع أقدام على السلم حتى تنطلق فى الغناء بصوت مرتفع ، الناحية اليسرى من الطابق الثالث لايقطنها أحد • • أما يمناه ففيها رجل يدعى «مندرنيكل» — توبياس مندرنيكل .

تدور حول هذا الرجل قصة سأرويها الآن لانها مليئة بالمثيرات والمفزعات بدرجة غير عادية •

كان مظهر مندرنيكل الخارجى غريبا ملفتا للانظار ومثيرا للضحك عندما كان مندرنيكل يخرج للنزهة فانك ترى هيكله النحيل الهزيل يتحرك مرتكزا على عصاه وقد اتشح بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه .

كان يرتدى قبعة عالية رثة قديمة الطراز ذات حافة مقوسة ، وسترة تلمع من قدم العهد بها •• أما سرواله الرث ذو الاطراف الممزقة فانه قصير لدرجة أنك تستطيع أن ترى منه الجوانب المطاطية للحذاء الطويل الذى يرتديه •

ولكن بالرغم من قدم ملابس مندريكل فقد كانت منظفة تنظيفا جيدا ، ومعنى بها عناية تامة •

وكانت رقبته النحيلة تبدو أكثر طولا لانها تخرج من ياقة السترة المنخفضة الملتوية الى أسفل •• وكان شعره الذى أصبح رماديا ممشطا وقد ألصق على صدغيه ، وكانت حافة قبعته العريضة تظلل وجها شاحبا حليقا ، غارت وجنتاه وقد أحاط الاحمرار بعينيه اللتين تتجه نظراتهما عادة الى الارض•• ومن جانبى أنفه الذابل تمتد تجعيدتان عميقتان شرستان الى جانبى فمه •

لم يكن مندرنيكل يغادر منزله الا فى

القليل النادر .. وكان له عذره الوجيه في ذلك فانه كان كلما ظهر في الشارع تجمعت خلفه مجموعة من الاطفال وراحوا يتتبعونه وهم يضحكون ويسخرون مغنين صائحين .

ـ هو .. هو .. توبياس !

وتمتد أيديهم تشد أذيال سترته وهم يواصلون صياحهم وضحكهم الساخر ، بينما يطل الناس من أبوابهم ضاحكين ، ولم يكن توبياس مندرنيكل يبدى أدنى مقاومة بل كان يتلفت حوله في ارتباك وخجل وقد برز رأسه من بين كتفيه المرتفعتين .. وكان يستمر في سيره هكذا كما لو كان رجلا يسرع الخطى مهرولا تحت وابل من المطر المنهمر بدون مظلة .

وبالرغم من كل هذا فلم يكن يفوته أن ينحنى في أدب وتواضع لكل من يمر بهم .

ولم تكن طريقة سيره هذه لتتغير حتى عندما يتوقف الاطفال عن متابعته ويصل الى مكان بعيد عن منزله حيث لايعرفه أو حتى يكاد يلحظه أحد .

كان يواصل هرولته وخطواته السريعة محنى الهامة مطاطئى الرأس كأنما تتسلط عليه آلاف من العيون الساخرة الهازئة .. فاذا ماتصادف ورفع بصره الخجول المرتبك عن الارض فانك تستطيع أن تلاحظ شيئا غريبا .. تستطيع أن تلاحظ أنه لايستطيع أن يركز نظراته على شيء أو شخص معين لفترة من الزمن قد يبدو أن ماسأقوله الآن غريبا ولكن مندرنيكل كان يبدو عليه أنه فقد ذلك الاحساس الطبيعى بالاهمية ، هذا الاحساس الذى يتطلع به الانسان العادى الى ماحوله من مظاهر الحياة .

كان يبدو كأنما يقيس نفسه بكل مظهر من مظاهر الحياة حوله وعندما يجد انه أقل منها يرتد نظره عنها في الحال ويتجه الى الارض منهاراً أمام الرجال وامام الاشياء .

ماذا من أمر هذا الرجل الذى يزيد حظه من الوحدة والشقاء عن غيره من الأناس العاديين .

تدل ملابسه على أنه من الطبقة المتوسطة ، ولكنه كان يأتى بحركة بطيئة بيده تدل على انه لم يكن من عامة الناس الذين يعيش بينهم ، كانت يده تمر بذقنه في حركة أرستقراطية ، ولكن كيف لعب به القدر حتى أصبح على ماهو عليه الآن ؟

الله وحده هو الذى يعلم ، كان وجهه يبدو كما لو كانت الحياة قد صنعته في قسوة وهى تقهقه في سخرية واحتقار منه ، أو قد يكون الامر متعلقا بصدمة قاسية وجهتها اليه الحياة ، لعل السبب الوحيد فيما هو فيه الآن هو انه لم يكن يستطيع مواجهة الحياة ، فان التضاؤل الاليم والوضاعة الواضحة في تكوينه توحى بأن الطبيعة قد حرمته ذلك القدر اللازم من القوة والاتزان والتماسك التى يحتاج اليها الانسان لكى يسير في حياته مرفوع الرأس .

بعد أن يقوم توبياس بنزهته في المدينة كان يعود الى شارع جراى حيث يستقبله الاطفال بغوغائهم وصياحهم المرتفع ، يدخل المنزل ويصعد السلم القذر الى غرفته العارية التى لم يكن بها ما يستحق أن يقال انه أثاث غير دولاب

أثرى ذى أدراج من طراز « امبـــاير » بمقابض نحاسية ، انه قطعـــة تتمتع بقسط كبير من القيمة الفنية والجمـال والفخامة

وكان بغرفة توبياس نافذة تطل على منظر مقبض ، فان جدار المنزل المجاور كان يقطع اى أمل فى أن ترى من خلالها النافذة التى وضع توبياس أصيص زهور على حافتها ، ولكنه خال من أى نبـات الا من الطمى الذى يملؤه ٠

كان توبياس مندرنيكل يذهب الى هذا الاصيص أحيانا ويشم الطمى !

بجانب هذه الغرفة توجد غرفة النوم وكان توبياس عندما يدخلها يلقى بقبعته وعصاه على المنضدة ثم يجلس على الاريكة المتربة ذات الكسوة الخضراء ويعتمد ذقنه على يده ويظل يحملق فى الارض رافعا حاجبيه طيلة الوقت كأنما ليس له عمل آخر غير تلك الجلسة وهذه الحملقة ٠

توبياس مندرنيكل من الشخصيات التى يصعب الحكم عليها ، ولكن الحادثة التالية تستطيع أن تلقى بعض الضـوء على شخصيته ٠

خرج هذا الرجل الغريب من منزله يوما فانقض عليه فى الحال جماعة من الاطفال تتبعوه كالمعتـــاد بضـــحكهم وصياحهم وسخريتهم ٠٠وفى تلك الاثناء تعثر أحدهم ــ وهو صبى فى العاشرة من عمره ــ فى قدم صبى آخر وسقط على الارض بشدة وارتطم وجهه بحافة الطوار حتى أن الدم تفجـر من انفه وجبهته واغرق وجهه ، فارتمى الصبى فى مكانه واخذ يبكى .

وهنا توقف توبياس فى الحال ، ثم استدار متجها الى الصبى وبدأ يواسيه فى صوت هادىء يختلج بالعاطفة :

ــ ايها الطفل المسكين ٠٠ هل جرحت نفسك ؟ انك تنزف ، انظر كيف يسيل الدم على وجهك من الجرح فى جبهتـــك نعم ٠٠ نعم ٠٠ انك تبدو بائسا حقا ٠٠ أنك تبكى لان الجرح يؤلمك ألما شديدا ، اننى أرثى لك ٠٠ انك مسئول عما حدث لك طبعا فقد فعلته أنت لنفسك ولـكننى سأربط منديلا حول راسك ٠٠ هأنذا قد فعلت ، هيا ، هيا ٠٠ والآن تماسك وانهض من وقفتك هذه ، هيا ، هيا ٠٠ هيا ياصغيرى العزيز ٠

فى أثناء حديث توبياس مع الصبى كان قد ضمد جراحه ٠٠ ربط منديله حـــول الجرح ، وســـاعد الصبى فى النهوض على قدميه ثم ذهب ، ولـكنه بدا كما لو كان انسانا آخر فقد انتعشت قامته وقويت خطواته فى اعتـــداد ، واتسع صدره وهو يسحب من الهواء حوله انفاسا عميقة ٠٠وبدت عيناه أكثر اتساعا واكثر لمعانا ٠

واتخذ طريقه مواجها الناس والاشياء فى ثقة واعتداد ، بينما تعبير عميق عن السرور والسعادة قد تملكه وظهر جليا على وجهه فقد كانت الابتسامة العميقـة على جانبى فمه تبدو كأنها تؤلمه من شدة انفعالها وعمقها ٠

وبعد هذه الحادثة ــ ولبعض الوقت ــ قلل سكان شارع جراى من سخريتهم منه ، ولكنهم بمرور الوقت ، نســـوا تصرفه هذا المثير ٠٠ وعادت ــ مرة أخرى ــ

صيحاتهم القاسية تتردد من الحناجر القوية لعشرات الاطفال تتبع الرجل المحنى الضعيف : : ـ هو ·· هو ·· توبياس ·

***

فى الحادية عشر من صباح يوم مشرق الشمس غادر توبياس مندرنيكل مسكنه متخذا طريقه عبر المدينة حتى وصل الى متنزة ليرشنبرج ، حيث يقضى أغنياء المدينة وأفراد مجتمعها الراقى عصر كل يوم فى النزهة والسير على الاقدام · فى ذلك اليوم كان الجو صحوا جميلا جدا لدرجة انه قبل حلول الظهر كنت ترى بعض العربات وبعض المشاه يستمتعون بهذا الجو بالتنزه فى الحدائق ·

عند الشارع الرئيسى تحت احدى الشجرات وقف رجل يمسك بطرف رباط تنتهى الناحية الاخرى منه بكلب صغير من كلاب الصيد .. انه يعرضه للبيع كان الكلب صغير الحجم ، تبدو عليه القوة والعضلات ، فى حوالى الشهر الرابع من عمره أسود الاذنين ، تحيط بعينيه دائرتان سوداوان ·

على بعد عشر خطوات لاحظ توبياس مندرنيكل ما يحدث ، فوقف دون حراك يفكر وقد أخذ يمرر يده على ذقنه ·· وراح ينظر الى الرجل ويراقب الكلب الذى أخذ يحرك ذيله فى تيقظ ونشاط·

تقدم توبياس بضع خطوات ثم دار حول الشجرة عدة مرات وهو يضغط بطرف عصاه على شفتيه ·· وأخيرا تقدم من الرجل ونظراته مركزة على الكلب· وتحدث فى صوت خافت ونبرات سريعة: كم تطلب ثمنا للكلب ؟

فأجاب الرجل :ـ عشر ماركات

وهنا التزم توبياس الصمت بعض الوقت ثم قال فى تردد:ـ عشر ماركات!!

فأجاب الرجل :ـ نعم

أخرج توبياس من جيبه حافظة جلدية سوداء اللون ، وأخرج منها ورقة من فئة الخمس ماركات وأخرى فئة الماركات الثلاث وثالثة فئة الماركتين ، وأعطاها للرجل بسرعة ثم امسك برباط الكلب·· وضحك بضعة أشخاص ممن كانوا يرقبون الصفقة وهم يرونه وهو ينظر حوله نظرة سريعة خائفة ثم يجذب الحيوان الذى يعوى محتجا وابتعد عن المكان وقد انحنى كتفاه ·

وظل الكلب يقاوم طيلة الطريق وهو يمد قدميه الاماميتين ويدفع بهما الارض ناظرا الى وجه سيده الجديد بطريقة يستدر بها عطفه · ولكن توبياس استمر يجذبه ـ دون أن يتكلم ـ يجذبه بقوة حتى نجح فى أن يعبر به المدينة ·

وعندما ظهر توبياس فى شارع جراى وهو يجر الكلب قامت مظاهرة من صبيان الشارع الاشقياء ، فرفع توبياس الكلب بين ذراعيه بينما راح الصبية يرقصون حوله ، وهم يشدون سترته ويصيحون ساخرين منه ·

وصعد توبياس السلم حاملا الكلب حتى وصل الى غرفته الخاصة ، فوضعه على الارض وهو لايزال يعوى · انحنى توبياس على الكلب وأخذ يربت عليه فى رقة وعطف وهو يحدثه بقوله :

ـ كفى ، كفى، أيها الرجل الصغير·· لا حاجة بك الى أن تخاف منى ··

لا داعي مطلقا الى الخوف منى ٠

وأخرج صحنا من اللحم المطبوخ والبطاطس من أحد الادراج ، وألقى ببعضه الى الكلب ٠٠ عندئذ توقف الكلب عن الاحتجاج وأقبل على الطعام يأكله بشهيه مسموعة ، وهو يهز ذيله٠

قال توبياس:ـ سوف أدعوك «أوسو» هل تفهمنى ؟ من السهل عليك أن تتذكر هذا الأسم ٠

ثم أشار توبياس الى الارض أمامه وقال فى لهجة آمرة :ـ أوسو ! فتحرك الكلب ٠٠ لعله كان مدفوعا بالامل فى الحصول على مزيد من الطعام ٠٠ تحرك مقتربا من توبياس الذى مال على الكلب وربت على ظهره فى حنو وقال :

ـ أحسنت أيها الكلب الجميل ٠٠ نعم ، هكذا ٠٠ أيها الكلب الجميل ٠

وتراجع توبياس خطوات الى الخلف ثم أشار مرة أخرى الى الارض أمامه وقال آمرا :ـ أوسو !

وقفز الكلب نحوه فى سرعة ونشاط، وهو يهز ذيله ، وبدأ يلعق حذاء سيده وأخذ توبياس يكرر تلك الحركة فى حماس لايفتر اثنتى عشرة ، أو اربع عشرة مرة ، حتى تعب الكلب وتلمس الراحة لكى يهضم الطعام الذى تناوله ٠٠ فاستلقى على الارض ، واقعى هناك متمددا بتلك الطريقة الجميلة التى يتمدد بها كلاب الصيد ، مادا ساقيه الاماميتين الطويلتين القويتين أمام جسمه، الواحدة بالقرب من الاخرى ٠ وقال توبياس :

ـ مرة أخرى ٠٠ هيا يا أوسو ٠

ولكن أوسو أدار رأسه جانبا ، وظل قابعا حيث هو ٠

ـ أوسو

ارتفع صوت توبياس ووضحت فى نبراته تلك الدكتاتورية التى كان يأمر بها الكلب ٠

ـ يجب أن تاتى الى هنا ٠٠ حتى ولو كنت متعبا !

ولكن أوسو أسند رأسه على مخلبيه ولم يأت على الاطلاق

ـ استمع الى ٠

قال توبياس وقد أصبح صوته الآن منخفضا مليئا بالتهديد والوعيد :

ـ الافضل لك أن تطيعنى والا عرفت ما أفعل عندما أغضب ٠

ولكن الكلب لم يحرك حتى ولا ذيله٠

عندئذ تملكت مندرتيكل حالة مجنونة مبالغ فيها من الغضب ، فأمسك بعصاه السوداء ، ورفع أوسو بيده من أعلى رقبته ٠ وفى حمى من الغضب هوى بعصاه ضربا على الحيوان الذى يعوى ٠٠ وهو يكرر فى صوت مخيف كالفحيح :

ـ ماذا انك لا تطيعنى ؟ أتجرؤ على عدم اطاعتى ؟

وأخيرا ألقى بالعصا بعيدا ووضع الحيوان الذى يعوى على الارض ٠٠٠ ثم بدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد تشابكت يداه وراء ظهره وصدره يعلو ويهبط ، وهو يلقى ـ بين الحين والآخر ـ نظرة متعالية مليئة بالغضب على الكلب٠

وبعد أن مرت فترة على هذه الحالة .. توقف توبيـــاس أمام الكلب الذى كان راقدا على ظهره محركا ساقيه الاماميتين فى استعطاف .

وضـــع توبياس مندرنيكل يديه على صدره متقاطعتين ، وتحدث فى جفـــاف عنـــدما كان يقف أمام فرقة من جيشه لم يبتل بلاء حسنا فى احدى المعارك .

ـ هل أستطيع أن أسالك عن رأيك فى تصرفاتك هذه ؟

وما كاد الكلب يحس بهذا التنازل من سيده ويسـعده أنه يوجه اليه الحديث حتى رحف مقتربا منه والتصق بقـــدم صاحبة رافعا راسه اليه وعيناه تلمعان.

وظل توبياس برهة يحدق فى المخلوق المسكين باحتقـــار صامت . ثم عندما أحس بحرارة جسمه الملاصق لقدمه .. مال وحمل أوسو بين ذراعيه . وقال له:

ـ حسنا ، سوف أشفق عليك

ولكن عندما بدأ الحيوان الطيب يلعق وجه سيده ، ارتجف صوت توبياس بمشـــاعر حزينة وضم الكلب فى حنو وشوق الى صـــدره ، وامتـلأت عيناه بالدموع ، ولم يستطع أن يكمل حديثه. وأخيرا قال فى صوت متهدج :ـ

ـ أرجو أن تفهمنى .. انك الوحيد الذى .. ليس لدى الا .. انك بالنسبة لى الوحيد الذى ..

وحمـــل توبياس الكلب الى الاريكة فأرقده عليهـــا بعناية شديدة حتى نام الكلب .. وجلس توبياس بجـواره ، وقد اعتمـد ذقته بيده وأخذ ينظر اليه نظرات تنطق بالحنو . دون أن ينطق .

* * *

أصبح توبياس مندرنيكل يغادر غرفته الآن أقل من ذى قبل .. فلم يكن لديه أى رغبـــة فى أن يراه أحد فى صحبه أوسو ..

ووهب كل وقته للكلب، منذ الصباح حتى المساء .. يطعمه وينظف له عينيه ويعلمه اطاعة الاوامر ، ويوبخه، ويحدثه كما لو كان انسانا .

ولكن أوسو للاسف لم يكن ينصرف دائمـــا بالطريقة التى ترضى سيده .. وكان عنـــدما يرقد بجوار توبياس على الاريكة تبدو عليه مظاهر الخمول والكسل بســـبب حاجته الى التريض والهـواء الطلق .. ويحملق فى سيده بعيون كلها حزن . وكان توبياس يســـعد بهذا ، فيجلس هادئا راضيا وهـــو يربت فى حنان ورقة على ظهر أوسو وهو يقول له:

ـ أيهـا الزميل المسكين ، انك تنظر الى بحزن شـديد ! نعم . نعم ان الحياة حزينة .. سـوف تتكشف لك هـــذه الحقيقة قبل أن تكبر كثـيرا ولكن طبيعة أوسو كانت تتغلب عليه أحيانا ، فينقلب الى وحش ، مدفوعا بحاجته الى الانطلاق والجرى وترويض طبيعته للصـــيد .. فكان يندفع عدوا هنا وهناك فى الغرفة وهـو يعبث بنجف سـيده ويقفز على المقاعد أو يستدير بجسده على الارض مرات ومرات ليصرف طاقته الزائدة .

وكان توبياس عندئذ يتابع نشـاط أوسو وحركاته من بعيد ويراقبه ولكنه

غير راض عن هـــذه التصرفات ، ولكنه لايستطيع أن يفعل شيئا بغيرها تكسو وجهه ابتسامة صفراء كارهه ·· وأخيرا يندفع توبياس فجأة مناديا أوسو قائلا: فى هذا الكفاية الآن ·· توقف عن هذه الحركات المجنونة ·· ليس هنـــاك أى سبب لكل هذا النشاط والسعادة التى تبدو عليك ·

***

وحدث مرة أن تمكن أوسو من الخروج من الغرفة ، فاندفع يهبط الدرج حتى وصل الى الطريق ، حيث أخذ فى الحال يطارد قطـا ، ويلتقط القـاذورات من الطريق ، ويقفز نحو الاطفال وهو يكاد يجن سعادة بهذه الانطلاقة · ولكن عندما ظهر توبياس بوجهه العـابس الذى كان ينطق بهول المصيبة التى حلت به، ما أن ظهر توبيـاس حتى ضج نصف الشارع بالضحك لمجرد رؤيته · وكان مؤلمـا يقفز مبتعدا فى الناحية الاخرى كلمـا ماحدث بعد ذلك ، فقـد انطلق الكلب تقدم توبياس نحوه يريد أن يعيده الى غرفته ··

فى ذلك اليـوم استولى الغضب على توبياس، فراح يضرب الكلب مدة طويلة بعـد أن مرت عدة أسابيع على حصـول توبياس على الكلب ·· كان يـــوم حين تنـــاول توبيـاس رغيف خبز من أحد الادراج،وبدأ ينحنى ليقطع الرغيف قطعا صغيرة بسكينة ذات المقبض العظمى ·· كان يلقى بقطع الخبز على الارض لياكلها أوسو الذى اعترته الرغبة فى الاكل وفى اللعب معـــا ··· فـراح يقفز الى أعلى ليلتقط قطع الخبز قبـــل أن تسقط على الارض ·· ولـكن السكين ذات المقبض الطويل التى تحملها يد توبياس المرتعشة أصابت أوسو فى كتفه الايمن·· فسقط على الارض والدماء تنزف منه ·

وفى ذعر شديد ألقى توبياس بالطعام جانبا وانحنى على الحيـوان الجريح وقد تغيرت تعابير وجهه الذى كسته لمحةمن الراحة والسعادة .. وفى عناية شديدة حمل توبياس الحيوان الجريح الى الاريكة·

وبكل ما يملـكه من ذخيرة لا تنضب من الرعاية والاخلاص بدأ يعنى بالجريح لم يبرح جانب الكلب طيلة اليـوم ·· ولما حل الليـــل حمله لينام بجواره على سريره وغســـل له الجرح وضمده ·· وراح يربت عليه ويداعبه ويخفف عنه بعطف لا يعرف الملل ·· وراح يقول له:

ـ هل يؤلمك الجرح كثيرا ؟ نعم ، انك تتالم كثيرا أيها الصديق المســكين .. ولكننا يجب أن نكون هادئين ويجب أن نحاول تحمله :

وكانت نظرات وجهه تنطق بالسعادة الرقيقة الحزينة ·

ولكن مع تحسن صحة أوسو واندمال جرحه أخذت سعادة توبياس تنهـار من جديد ..لم يعد يعنى بالجرح ..واقتصر فى التعبير عن مشـــاعره على المداعبات والكلمات الطيبة ·· ولكن الجرح سرعان ما اندمل ، فقد كان تكوين أوسو قويا ، وبدأ يتحرك هنا وهناك مرة أخرى ·

* * *

وفى يوم من الايام بعد أن فرغ من تنـــاول طبـــق كامل من اللبن والخبز

الابيض بدا وقد استعاد حالته الطبيعية مرة أخرى ، فراح يقفز من الاريكة ليجرى عبر الغرفة فى كل اتجاه وهو ينبح فى سعادة بما يستمتع به من نشاط وانطلاق .. شد أغطية السرير ، وطارد ثمرة بطاطس فى كل أرجاء الغرفة وأخذ يدور حول نفسه فى ثورة جامحة .

ووقف توبياس عند اصيص الزرع فى النافذة ، وقد خرج ذراعاه الطويلان النحيفان من الكمين المهلهلين ، وراحت أصابعه تعبث ـ آليا بالشعر المتدلى عند صدغيه . وظهر جسمه أسود جامدا على الحائط الرمادى للمبنى المجاور .

كان وجهه غائرا وقد نضبت منه الدماء بسبب الالم الذى يعتمل فى نفسه وهو يرقب صامدا ثورة أوسو وألعابه وقفزاته هنا وهناك ، يرمقه بنظرة جانبية فيها حقد وغيظ وغيرة .

وفجأة استجمع شتات نفسه واقترب من الكلب وأوقفه عن القفز واللعب ثم حمله برفق بين ذراعيه وبدأ يحدثه فى لهجة رقيقة مليئة بالشفقة :

ـ والآن أيها المخلوق التعس

ولكن أوسو لم يكن فى حالة تجعله يحفل باحساس الشفقة والحنو ، فقد كان سعيدا مرحا مليئة بالحيوية، فافلت بسرعة من اليد التى همت لكى تربت عليه ، وقفز هاربا من ذراعى توبياس الى الارض حيث أخذ يدور حوله مداعبا .. ثم انطلق مبتعدا وهو يطلق نباحا سعيدا .

ما حدث بعد هذا كان شيئا مفاجئا مذهلا لا يمكن تصوره لدرجة أننى لا أستطيع أن أروى تفاصيله . فقد انحنى توبياس الى الامام قليلا وهو واقف وقد تدلت ذراعاه الى أسفل وشفتاه مزمومتان ، وعيناه تتذبذبان فى محجريها بشكل غريب .

وفجأة ـ فى حركة سريعة مجنونة امسك توبياس بالكلب ، وقد برق فى يده شىء كبير لامع وهو يهوى بسرعة ..

ثم ألقى أوسو الى الارض وقد مزق كتفه الايمن جرح كبير غائر فى صدره . لم يصدر عن الكلب أى صوت ، فقط وقع على جانبه فوق الارض تتدفق الدماء منه غزيرة وهو ينتفض .

ثم حمل توبياس الكلب فأرقده على الاريكة وجلس بجواره يضمد جراحه بينما يتمتم :ـ

ياصديقى المتوحش المسكين ، ياكلبى المسكين ! كم هو حزين كل شىء ... كم هو حزين كل شىء بالنسبة لكلينا ! انك تتعذب . نعم انت تتعذب انا أعلم ذلك .. ها انت ذا ترقد فى حالة يرثى لها ولكننى معك ، أرعاك واخفف عنك .. هذا أفخر مناديلى .

ولكن أوسو استلقى على الاريكة . وخرجت من حنجرته حشرجة قوية .. واتجهت عيناه اللتان بدأت الغيوم تطمسهما ، اتجهتا نحو سيده فى نظرة تساؤل ، كلها شكوى وبراءة .. وعدم فهم . ثم تمددت ساقاه قليلا .. ومات .

***

ولكن توبياس ظل بجواره دون حراك وقد وضع وجهه على جسد أوسو وبكى بدموع مرة .